تخطيط لمقال أدبي

أ. كمال عمران
كليّة الآداب ــ منوبة

1 ــ التّذكير بأبرز مراحل إنجاز المقالة :

الإنشاء أو المقالة من الأعمال التي يمتحن فيها طالب المعرفة والعلم. فَهي المفصح عن قدرة التلميذ أو الطالب على فهم البرنامج وعلى تفسيره. كما يجمع هذا العمل بين جانب إبداعيّ ذوقيّ جماليّ، وآخر علميّ موضوعيّ رياضيّ. فلا عجب أن يحيل الإنشاء على تميّز التلميذ أو الطّالب. وليتيسر هذا التّميّز يجدر أن نذكّر بالخطوط الكبرى لهذا العمل:

أ ــ كل إنشاء ينطلق من موضوع، وكلّ موضوع يتّسع بشكل أو بآخر إلى جزأين. النّص والسّؤال. النصّ يضمّ المسألة، والسؤال يحتضن المشكليّة. فأوّل ما يبادر به مُنشئ المقالة التّمييز بين هذين الجزأين، إذ الأوّل نصّ قصير قد يُوغل في القصر والإيجاز، والثّاني ضروب من الأسئلة. ومن الطّبيعي أن يبدأ تأمّل الموضوع مِن السؤال، لأنّه يفتح على تصوّر العمل في خطوطه الكبرى. فإن جاء السؤال تحليلا فإنّ التصوّر يعود إلى نصّ الموضوع، ومنه يستمدّ العناصر الكبرى. وإن جاء تعليقًا فهو تصوّر ثنائيّ، فيه قسم تحليليّ وآخر هو التّعليق. وإن كان نقاشا فهو ثلاثيّ : قسم هو الأطروحة، والثّاني هو النقض، والثّالث هو التأليف. فكلّما تغيّر السّؤال، تمخّض التصوّر لعناصر تلائمه. أمّا نصّ الموضوع فهو الغذاء للتصوّر، أو هو الجسم الذي يرتدي ثوب التّصوّر في السّؤال. فالسّؤال يحطّ في رحال العناصر الكبرى وهي مفاصل الجوهر الكبرى. والنّص يوفّر لتلك المفاصل معانيها وفروعها.

ب ــ كل فكرة في الموضوع، مهما صغرت أو كبرت، يعني كانت عنصرًا في المفاصل الكبرى أو كانت فرعا منه، تمرّ بمراحل ثلاث أساسيّة: هي المقدّمة والجوهر والخاتمة. فالفكرة تبدأ بتمهيد ثم تستوجب جوهرًا هو روحها وأساسها، ثم تنتهي بخاتمة هي بمثابة التخلّص إلى الفكرة الموالية. فلا تُبنى المقالة على المقدمة والجوهر والخاتمة فحسب، بل كلّ فكرة تخضع في صورة مصغّرة للطّريقة نفسها. وهذا المنهج كفيل بأن يضمن التّرابط العضوي سواء بين الأفكار أو بين العناصر.

ج ــ تحتاج المقالة إلى التّوازن بين عناصرها، وهو يُرسم في التّخطيط قبل إنجازه في الإنشاء. ويجدر أن يبدو هذا التّوازن للعيان الظاهر قبل أن يتحوّل إلى العمل ذاته، لأنّه يتّصل بالترتيب وبالتّفصيل وبالتّوزيع. وهو يضمن لصاحب المقالة تصرّفا محكمًا ومنطقيًا في المعلومات، فلا تزدحم عليه ولا تستعصي بقدر ما تخضع لعملية إنشاء وبناء وإحكام تراعي منطقا ملائمًا يبدأ عادة بالأفكار البسيطة ليصل إلى الأفكار العميقة.

د ــ تتّسع المقدمة إلى عناصر ثلاثة : هي المدخل وهو تمهيد عام، وطرح وهو ضبط المشكلية، والإحالة وهو الإلماع إلى مراحل الجوهر. ولا نرى الطّرح على ما تعوّد كثير من التلاميذ والطّلبة قائما على إعادة نصّ الموضوع، ثمّ أن يشفع بالأسئلة التي تفتح على الجوهر. وأمّا الجوهر فهو قرين السّؤال وطبيعته ولكنّه لا يتخطى أربعة عناصر ولا يستوي دون العنصرين. وللخاتمة مراحل ثلاث : هي إجمال الجوهر، وإجمال النقد، والإحالة على قضيّة جديدة لا تتبلور حتما في شكل أسئلة.

2) الموضوع: **تمثّل رحلة موسى العسكري في كتاب ميخائيل نعيمة «اليوم الأخير» رحلة معرفيّة عالج فيها مسألتي الحياة والموت، فأنتهت إلى تأليه الإنسان. حلّل هذا الرّأي وعلّق عليه.**

1 ــ المقدمة :

أ ــ **المدخل** : تقوم الفكرة المحوريّة في المدخل على اختيار نعيمة الأدب الذّهني، وهو يؤسّس الكتابة على الأفكار ويجعل الأديب رسولا حسب فهمه لوظيفة الأديب في كتابه الغربال. (لا يكون المدخل عادة تاريخيّا أو حكمًا جاهزًا أو شاهدًا نقديًا).

ب ــ **الطرح** : ذكرنا أنّ الطّرح هو موضوع نصّ الموضوع: يعني الفكرة المحوريّة فيه. فالمشكليّة هي الانطلاق من صلة الإنسان بالحياة والموت إلى التألّه.

ج ــ **الإحالة** : وهي تنطوي على مراحل الجوهر الكبرى، وهي الأبعاد المتعلّقة بالحياة والموت والإفصاح عن المنظومة الفكريّة عند نعيمة في هذا السّياق. ثم العروج إلى الطّريقة التي ارتآها ليصبح الإنسان إلـهً، والانتهاء إلى مواطن التعليق : وهي الكشف عن خبايا المنظومة الفكريّة، وتأكيد التألّه خارج دائرة المعهود في الأديان والفلسفات.

2 ــ الجوهر :

I ــ التحليل :

1 ــ الأبعاد المتّصلة بالحياة والموت في «اليوم الأخير» :

أ ــ الحياة مراحل تتلو مراحل : وهو مبدأ انتهى إليه موسى العسكري بعد تأمّلات طويلة أقنعته أنّ معنى الحياة يتغيّر إذا أدركنا معنى القاعدة والنّظام، وهي تجاوز ما هو ظاهر ومنكشف لكلّ النّاس ليتأصّل المتأمّل الباحث فيما يميّزه عن غيره بحكم الوضعيّة الجديدة التي أضحى يعيشها، فجرى تفكيره على قاعدة تأمّل متميّزة هي دحض معنى العقاب والجزاء في المعتقد الدّيني إلى مفهوم جديد يستوجب القصاص والعدل. والعدل يفرض أن يتحمّل كل إنسان أعباء أخطائه. وبهذا المعنى نخرج مع موسى العسكريّ من مفهوم يوم القيامة ويوم الحساب وهو القانون المألوف في الحياة الدّينيّة إلى قانون جارٍ في الوجود وفي الحياة لا خارجهما.

لقد فصّل نعيمة بين ما هو زائف يجترّه الإنسان في المعرفة العاديّة، ويتمثّل في أن الموت يفتح على باب يوم

القيامة، وبين ما هو يقين يطلبه الإنسان في مراحل حياته المتتالية: وهو أنّ الموت ليس إلّا عطلة بعد دورة من الحياة. والوجود مجموعة لا متناهية من عطل هي «الموت» ودورات هي «الحياة». وكلّ دورة وكلّ عطلة تبعد الإنسان، إن ببطء أو بسرعة، عن غيّه وذهوله لتجذّره في الوعي. لذلك فالحياة مراحل تتلو مراحل.

ب ـــ العدل والقصاص : اتّضحت لموسى العسكري حقيقة كانت خفيّة ثم تبلورت بشكل واضح. مضمون هذه الفكرة متّصل بعقيدة تُثبت وجود الله من جانب وتحدّد العلاقة بين الإنسان والله من جانب ثانٍ. فالله هو محور الوجود ، والإنسان خاضع لتصرفه،إلّا أنّ هذه الفكرة تفرض ملابسات منها: معنى الله ليس المعنى العاديّ المتعارف في الأديان، ومنها طبيعة العلاقة بين الله والإنسان لأنّ هذه العلاقة رهينة وعي الإنسان. فكلما رسخ في الذهول ازدادت الهوة. ومعنى العدل في هذا السياق يتجلّى من خلال صروف الحياة، فقد تأمّل موسى العكسري موت ابن المختار وهو حدث قدح حدثا آخر: وهو ولادة المولود الأعمى في قصّة الإنجيل. وقد فهم من الحدثين معنى القصاص وهو ما لخّصه في قوله «حصادهم لما زرعوه». فكلّ عمل يأتيه الإنسان يلقى جزاءه إن عاجلا أو آجلا. وهي فكرة توصّل عنده معنى العدل. فليست الأمور في الحياة جارية على العبث والاعتباط، بل هي خاضعة للحكمة وللمنطق، والمهمّ أن يكدّ الإنسان حتى يعرف ذلك.

2 ـــ المنظومة الفكرية :

أ ـــ ظاهرة التأمّل : خرج موسى العسكري تدريجيا من الذّهول إلى الوعي عن طريق التأمل، فقد استنطق التغيّر الحاصل في النّفس، كما أدرك التغيّر الحاصل في مفهوم الحياة والوجود. لقد انتقل من مرحلة البحث في ذاته إلى البحث في العالم والوجود طلبا للوعي ولليقين.

أمّا أداة التأمّل فهي المعرفة بغتة بعد الإلحاح على سؤال «فرغ رأسي من كل شيء إلّا من هذه اللّماذا» لذلك يسرع إلى عبارات من قبيل «وبغتة خطر لي خاطر غريب».

والأداة هي أيضا الحواس وقد أبطلها في السّاعة السّادسة، والعقل وقد تفطّن إلى إغرائه في السّاعة الثانية عشرة لينتهي إلى أدوات جديدة هي الحدس والخيال والإيمان. الحدْس هو البوارق التي تنقدح في ذات المتأمّل، والخيال هو الممكن الماثل وراء حجاب الذّهول، والإيمان هو الوصول إلى أن الإنسان في النّظام، وهو الله، وأنّ النّظام في الإنسان.

ب ـــ ظاهرة التقمّص : وقف موسى العسكري من الدّين ومن الحياة موقفا نقديًّا، جعل الدّين الحق خارج الشّرائع السّماوية. فهو أوّل الظاهرة الدّينيّة ليخرجها عن العبادات والطقوس وليجعلها نواميس وحكمة ومعرفة باطنيّة. والحياة المألوفة عنده هرمٌ شاخ فانهار، فهي معقل الأوثان. ووجب البحث عن دلالتها الحقيقيّة. وهو ما يتجلّي في التقمّص. لا ينظر موسى العسكري، بالتّقمص، إلى الحياة على أنّها نهاية يعقبها «الموت». بل الحياة امتداد في باطن معناها. فهي تستمد منطق امتدادها من التّقمص. وهو التدرج الطبيعي من الذهول إلى الوعي عبر مراحل كما أسلفنا.

3 ـــ كيف يصبح الإنسان إلهً ؟: ليس التألّه عند نعيمة التعبّد والتنسّك، بل هو عروج يفترض التخلّص من عوائق الجسد والطبيعة بالسّيطرة على الجسد بالفكرة والقلب، ثمّ بالسّيطرة على الطبيعة عند تأمّل دورها في الحياة والوجود. فالإنسان يبدأ بأن يسود على ذاته ثم يسود على الطّبيعة حتى يعرج إلى التألّه: وهي الوعي بالصّلة الحقيقيّة بين الإنسان والله. وهي نهاية حتميّة في نظر موسى العسكريّ وهي التي تبرّر وجود الهاتف اللّامسمّى في الرّواية وقد تجسّم معنى التأله في شخصية هشام العسكريّ ثمّ في موسى العسكريّ.

II. التّعليق :

1. الكشف عن خبايا المنظومة الفكرية :

أ ـــ التيوزوفيّة **La théosophie** : وهي مبدأ في الحياة اهتدى إليه نعيمة، وألبسه شخصيّة موسى العسكري. ومؤدى هذه التّيوزوفيّة أنّها معرفة باطنيّة تُقرّ بأنّ الوصول إلى الله يتمّ عبر مراحل معرفية وبرياضة نفسيّة لا تلتزم بالأديان والشرائع، كما لا تسلك مسلك الفلسفات. فمعناها الجوهريّ هو الحكمة الإلهيّة أو الحكمة الكامنة في الله. وبدون مراعاة هذه القاعدة الفكريّة تصبح المنظومة الفكريّة عند نعيمة غير ذات منطق داخلي.

ب ـــ الانتماء إلى الأدب المهجري : لا نغفل عند التعليق انتماء نعيمة إلى المدرسة المهجريّة. وقد أحدثت انقلابًا في الأدب العربي بميلها إلى الرومنطيقيّة وباكتشافها لمبدإ الثنائيّات. وكلّ رواية «**اليوم الأخير**» رحلة من الثّنائيات (كالخير والشرّ، والظلم والعدل، والفقر والغنى، والكراهية والمحبّة...) إلى الأحادية. ولبّ الأحادية هو التأحّد بين المخلوق والخالق، بين الإنسان والله.

2 ـــ **التّألّه خارج الأديان** : يمثل موسى العسكري في «**اليوم الأخير**» شخصيّة نموذجيّة، أراد بها نعيمة أن يدعو إلى نمط جديد في الحياة. وتدرك ملامح هذه الشّخصية بالقياس إلى الشّخصيّات الأخرى في «**اليوم الأخير**» فهي على أنماط: الأوّل موغل في الذّهول راسب في الجهالة كبولسانين وأم فرحات والصّياد، والثّاني متهيّئ للتّغيير كأم زيدان والمختار، والثّالث هو هشام العسكري وقد جعل نعيمة الابن مستقبلا للأب في ضوء اختراقه لمنطق الحياة العاديّة واستئناسه إلى الحياة الحقيقيّة، وفيها تكمن المعرفة الحقيقيّة، وهي معرفة ما كان وما هو كائن وما سيكون.

3 ـــ **خطاب نعيمة** . تنطوي رواية «**اليوم الأخير**» على خطاب روحانيّ أمعن في التّجريد وتاه في رحاب الميتافيزيا. فهل هو الخطاب الذي يصلح لوطن عربّي كان في السّتّينات يتهيّأ لأعتى صفعة وهي حرب الأيّام السّتّة؟ .

3 ـــ الخاتمة :

أ ـــ **إجمال الجوهر** : جسّمت رواية «**اليوم الأخير**» حدثا خطيرا في الأدب العربي الذّهني، إذ هي تبشر بمفهوم جديد يمسّ الحياة والموت وعلاقة الإنسان بالله .

ب ـــ **إجمال النّقد** : «**اليوم الأخير**» أسلوب في التّعبير يخترق حاجة الواقع العربي في السّتّينات، فهو يريد أن يرفع هذا الواقع إلى السماء في حين لم يستوِ بعد فوق الأرض.

ج ـــ **الإحالة** : تبيّن العلاقة بين طرق التّعبير في الأدب والبيئة العربيّة. يعني هل أنتجت البيئة العربيّة طرائق ملائمة ؟